

## أستاذي ..... في ذكرى فقيد الآثار العراقية الدكتور فوزي رشيد

حامد خيرى الحيدر

الحوار المتمدن-العدد: 4749 - 15 / 3 / 2015 - 13:30

التقيته أول مرة في منتصف السبعينات من القرن الماضي، في ذلك الوقت لم أكن أتجاوز من العمر العاشرة، حينها كنت في زيارة للمتحف العراقي بصحبة والدي وأحد أصدقائه الحميمين الذي تربطه بالرجل صداقة قديمة... ونحن في بداية جولتنا جاءنا متودداً مرحباً بقامته المديدة، معتليه وجهه ابتسامة طفولية جميلة تدخل قلب كل من يتلقاها دون استئذان.. بعد كلمات الترحيب والمجاملة ثم بضع خطوات من جولة الشرح لبعض المعروضات أخذ بشكل عفوي يوجه كل كلامه وتوضيحاته المُبسطة الجميلة عن القطع الأثرية لي دون والدي ورفيقه.. عندها بادرنى السؤال (ها عمو عجبك الآثار؟)... فأجبتته بسرعة صاحبها شيئاً من سذاجة الأطفال... (لا.. كلها شغلات قديمة)... عندها أطلق ضحكة مُجلجلة لايزال صداها يرن في أذني جعلت والدي وصديقه ينتبهان.. ثم التفت الى والدي وبقايا الضحكة لاتزال مرتسمة على فمه قائلاً له بضع جمل لم تسعفني ذاكرتي الصغيرة حينها بالاحتفاظ سوى بالأخيرة منها.... (أكيد المحروس راح يشتغل بالآثار من يكبر)... كانت نبوءة، نعم كانت نبوءة، لا أدري كيف خَمَنها هذا الرجل الذي لم أعرف اسمه أو وظيفته حتى تلك اللحظة، ولم يدر بخدي أو خلد والدي حينها أن دورة الزمن ستقول قولتها في مستقبل حياتي وتوجهي العلمي ليصدق في توقعه.. ثم استأذنا الرجل للعودة لعمله متعللاً بكثرة مشاغله التي تتطلب تواجد الدائم في مكتبه... غاب لكن صورته لم تغب عن مخيلتي لأسأل والدي عنه حال عودتنا البيت... لأعرف فقط أنذاك أنه الدكتور فوزي رشيد، مدير المتحف العراقي، والمختص بالكتابات المسمارية... كان طبيعياً أن يُنسى الرجل بعد هذا اللقاء ومع مرور أيام قلائل من حياة الصغر... ليظهر مجدداً بعد بضع سنوات على شاشة التلفاز حين أستضافه الراحل (كامل الدباغ) في برنامجه المعروف تلك الأيام (العلم للجميع)، ليتحدث من خلاله بأسهاب وعلى مدى حلقتين متتاليتين بأسلوب غاية في الروعة والبساطة يفهمها الصغير والكبير عن الآثار العراقية، ركز حديثه الجميل خلال ذلك اللقاء على الكتابة المسمارية، واللغتين السومرية والأكدية وتاريخهما.. بعدها انطبعت شخصية الدكتور فوزي رشيد في ذاكرتي رافضة مبارحتها.. فكنت طيلة السنوات التالية أتابع وأقرأ كل ما يكتب عنه في الجرائد والمجلات، وجميع ما تظال يدي من مؤلفاته رغم حداثة سني في ذلك الوقت.. كما لو أنه قد صاغ مستقبلي دون أن أدري أو أشعر، وكان قدراً عجبياً قد جمعي بهذا الإنسان..... لتقول الايام كلمتها وتتحقق النبوءة القديمة، فالتقيه خلال دراستي الجامعية في قسم الآثار/كلية الآداب وأنا في المرحلة الرابعة المنتهية حيث قام بتدريسنا مادة (آثار الخليج والجزيرة العربية)، كانت إحدى المواد الثقيلة الجامدة خلال تلك المرحلة، لكنه جعلها بأسلوبه المبسط المحبب تدخل قلوب الطلاب قبل عقولهم... وبذكانه وحدة بصره أستطاع تمييزي بسرعة رغم مرور تلك السنين وتغير هيئة ذلك الولد الصغير بطول قامته وكثافة شاربويه... ليبادرنى بعد انتهاء محاضراته الاولى معنا بسؤال طريف أختصر فيه كل تلك السنين الفاصلة مع أول لقاء معه (ها حامد بعدك ما تحب الآثار؟).. خلال تلك السنة الدراسية توطدت علاقتي به بشكل كبير جداً خاصة بعد تفوقي في مادته، حيث حصلت فيها على درجة (أمتياز)... كان دوماً يدخل قاعة الدرس والابتسامه مرسومة على مُحياه ولا يغادرها ألا وتلك الابتسامه قد ازدادت اتساعاً، كما كانت محاضراته تنتهي بشكل سريع بعيدة عن الملل والروتين القاتل الذي كانت تعاني منه الدراسات الجامعية، فكان يجعل الطلاب ينشدون اليها بشكل أخاذ، فتراه يتوسع بالمادة دون الخروج عن مضمونها ولا يجعلها محصورة بالمنهج

المقرر، مع أعطائه العديد من الأمثلة كي تترسخ في الأذهان.. كما كان يستمع برحابة صدر وبساطة متناهية لأفكار الطلبة وآرائهم، بل ويحفزهم على عدم الاقتناع مباشرة بما يقال أو التصديق بالرأي حتى وأن كان من الأستاذ أو المحاضر، فكان ينبهنا دوماً بأن الآثار الناجح هو الذي يدقق في كل شاردة وواردة ولا يأخذ الأمور على علاتها، وعليه دوماً أن يطرح كلمة (لماذا)، لكنه بنفس الوقت لا يطرح التساؤل جزافاً إنما وفق أسانيد تبرر عدم الاقتناع، وألا سيغدو النقاش من باب الجدل الأعمى الذي ليس له هدف أو غاية... كان بشوش الوجه على الدوام، محباً للنكتة والمواقف الطريفة، ومن الطرائف التي عرفناها عليه، أنه حين يرى أحد الطلاب وقد ارتكب سلبية ما من السلبيات كان ينبهه بطريقة جميلة، فيردد له عبارة (يوليوس قيصر) الشهيرة وخنجر قاتله يغور في جسده (حتى أنت يا بروتوس).. كان يحب الطلاب بشكل لا يوصف حيث يطيب له كثيراً تصغير أسمائهم تحبباً وتقرباً لهم ليشعرهم دوماً بأبوتهم لهم... لم أره إلا نادراً منزعاً أو عليه بعضاً من علامات الغضب رغم المحاولات البائسة للأسف لبعض الطلبة، و(المراهقين) من الأساتذة البناسين المنتسبين لحزب البعث المقبور لاستفزازه واصفين أفكاره بأنها ضرب من (الفنتازيا)، كونه يتبع أسلوب جديد غير مطروق سابقاً في تفسير حوادث الماضي، يعتمد فيه على المنطق العقلي والبديهية العلمية بشكل رئيسي يفوق الاعتماد على الدليل الأثري المادي كأداة رئيسية في اثبات الحقائق التاريخية، وهو بذلك يعلن صراحة (التمرد والثورة) على أساسيات علم الآثار. لكنه رغم ذلك كان يكتفي بالرد عليهم بابتسامة رانقة معللاً تلك الاستفزازات بأن لكل أنسان وجهة نظره الخاصة ومن حق الآخرين رفضها أو القبول بها... المرة الوحيدة التي بدا فيها منزعاً لدرجة العصبية كانت بعد التخرج، حين أخبرته برفض طلبي لأكمال دراستي العليا رغم تفوقي، بسبب الماضي السياسي لعائلتي الذي أفتخر به وأتشرفه وأعتبره وسام على صدري... حينها أفصح لي الكثير من الأمور وعن كيفية تصادمه مع أزام النظام المباد، عندما أخذوا يوظفون كتاباته التي خص بها ملوك وأبطال العراق القديم والمآثر الرافدينية الخالدة بطريقة وسخة خبيثة لتمجيد الطاغية المقبور ومغامراته الحمقاء، مما أعطى شعوراً لدى الكثير من الناس والمهتمين بشأن التاريخ أنه غداً أحد أعوان النظام وبوقاً من أبواقه.. وقد أدى ذلك فيما بعد الى عزله عن منصبه في إدارة المتحف العراقي ثم أبعاده كلياً عن عمله في هيئة الآثار والتراث في أواسط الثمانينات مع زميله في الدراسة والعمل أستاذي الآخر في دراسة الآثار د. عادل ناجي المختص بالأختام الأسطوانية، بداعي عدم الحاجة اليهما كونهم فائضين عن الملك الوظيفي !!! لينتقلا للعمل التدريسي في كلية الآداب/جامعة بغداد (قسمي الآثار والتاريخ)... وكان لكلماته أن خففت كثيراً من الم الغصة التي كنت أشعر بها حينذاك بسبب ذلك.. بالمقابل نصحتني بالعمل في الهيئة العامة للآثار والتراث لأثبت وجودي في مجال تخصصي الذي أحببته وتفوقت فيه.. ولأزلت أذكر قوله (البلد لأهله و ليس لهؤلاء الجهلة... مادمت تحب هذه المهنة، صير شوكة في عيونهم، وأفرض نفسك رغم أنوفهم)... وهذا ما حدث بالفعل ل فيم بعد.

بعد عملي كمنقب آثار في الهيئة العامة للآثار والتراث كبرت أواصر الصداقة بيننا ليضاف اليها زمالة العمل والمهنة ليرفع ذلك التكليف الثقيل الذي كانت تفرضه العلاقة بين الأستاذ وتلميذه فبدأت أناديه كما يحب أن ينادى من قبل المقربين منه (أبو ميسون) كناية لأبنته الكبرى، لأتعرف يوماً بعد يوم أكثر على شخصيته الرائعة ومدى بساطته ومودته للناس، وحبه المتميز لطانفتنا وهذا سر محبته لي وتقربه، ومن أقواله التي لا أنساها (أنتم الصابئة المندائيين أصل حضارة وادي الرافدين وأبنائها البررة الأوائل)... كنت أزوره بين الفترة والأخرى ومتى ما سنحت الفرصة في الجامعة للاطمئنان عليه، كذلك للمشورة العلمية التي يمنحها بكل سخاء ورحابة صدر... وخلال عملي في محافظة نينوى للتقيب في مدينة بلد/أسكي موصل خلال الأعوام 1995/1996 كان الدكتور فوزي يزورنا دوماً في مقر هيئة التقيب لدى قدومه لهذه المحافظة للمشاركة في لجان مناقشة الرسائل الجامعية العليا لطلبة جامعة الموصل.. وكان حينها يحل ضيفاً عزيزاً على هينتنا في

مقرها المتواضع داخل مدينة نينوى الأثرية، حيث لا يطيب له السكن في الأجنحة المخصصة للأساتذة الموفودين في تلك الجامعة.. فكان يستأنس كثيراً للقاء الآثاريين ويعيش حياتهم المتعبة وطبيعة عملهم المُضنى ويتابع بشغف وسعادة نقاشاتنا الدائمة حول نتائج عملنا اليومي، كما ويعطي آراءه السديدة الجميلة بشأنها، وأحياناً كان حتى يساعدنا في معالجة وترميم بعض القطع الأثرية التي نكتشفها خلال التنقيبات... لكن رغم ابتسامته الدائمة على وجهه فقد كان يخفي وراءها مسحة من الحزن يستطيع تمييزها من عرفه عن قرب على مدار تلك السنين، كان السبب هو معاناته الاقتصادية كحال باقي أبناء الشعب العراقي خلال فترة الحصار اللعينة.. خاصة بعد أحواله التي التقاعد لبلوغه السن القانونية، لذلك أخبرني بعزمه السفر الى ليبيا كحال الكثيرين من الأساتذة الجامعيين للتدريس هناك من أجل مردود أضافي يعينه وعائلته على صعوبة تلك الأيام... فعلاً نفذ رغبته وسافر الى هناك... حينها كنت أتابع أخبار غربته رغم الظروف الصعبة التي كانت تسرق الجميع لحياتهم خاصة مع طبيعة عملي الدائمة خارج بغداد من زوجته السيدة الفاضلة الاثرية (راجحة النعيم) زميلتنا في الهيئة.

وتمر دوامة الزمن الثقيلة لأنتقيه في منتصف شهر كانون الأول عام 1999 في العاصمة الأردنية عمان ولم يبق لي لمغادرتها لمنفائي الأبد في السويد سوى بضعة أيام بعد عام ثقيل متعب من الانتظار فيها... كنت حينها ماراً بأحد فنادق (وسط البلد) لزيارة بعض الأصدقاء... كان جالساً في باحة الفندق وحيداً شارداً الذهن... بدا مُتعباً مهموماً وأكبر من سنه بكثير.. فوجئت بروياه.. وما كاد يراني حتى أسكتت المفاجئة لسانه هو كذلك... عرف غايته مباشرة ودون أن أقول أي كلمة كأنه أعتاد فهم أفكاره ولو عن بُعد... التقائي وعيونه يملأها الحزن كأنه عثر أخيراً على من غاب عنه منذ زمن.. ردد وهو يهز رأسه عبارة واحدة لازالت محفورة في ذاكرتي (حمودي المن راح يبقى العراق).. عبارة قصيرة لكنه أحتزل فيها الكثير مما كان يود قوله لتلك الأيام الصعبة التي سيراها شعبنا، لقد قرأ المستقبل كما لو كان لوحاً مسمارياً فعرف ما سيحل بوطننا الجميل من خراب في قادم الأيام (وقد حصل).. كان مرهقاً للغاية بعد سفرة برية طويلة قادماً من ليبيا ليقتضي اجازة نصف العام الدراسية مع عائلته في العراق.. حدثني عن همومه هناك ومتاعبه الصحية بعد أن أصابه الوهن وضعف الجسد بسبب تقدمه في السن بعد كل تلك السنين من العمل، فأصبح من الصعب عليه العيش بمفرده في تلك البلاد التي لا يربطه بها أي رابط، مقارناً حالها مع عظمة وطننا بأيامه الجميلة الخوالي... أستمر لقائنا لأكثر من ثلاث ساعات، أفرغ كل منا همومه للآخر.. ثم أستأنذته عن مضض بالمغادرة، فلم يرغب حينذاك لأحدنا بترك صاحبه، لكنني كنت في ضيق من وقتي وعلي أكمال وتصفية الكثير من الأمور قبل مغادرتي المدينة.. تمنى لي التوفيق والنجاح في مساعي.. احتضنني بشدة كأنه أحس أن هذا اللقاء سيكون هو الأخير بيننا..

كنت أسمع حشرجة صدره، حينها أحسست أن قلبه كان يجهد بالبكاء دون العيون... لم يكن ذلك وداعاً بين أستاذاً وتلميذه أو بين أب وأبنه، كان بحق وداعاً بين جيلين... جيل خبر الدنيا وتجاربها فعرف أن جنان الأرض التي نقل ترحاله بينها لاتساوي بضع حبات رمل من الأرض التي تدعى الوطن وعشرة شعبيها الطيب الصابر الحنون... وجيل مازال في أوج ربيع الحياة تملوه الحيوية والعزيمة للعمل باخلاص من أجل أن يرى بلده في طليعة بلدان العالم المتقدم، لكن أضواء الغربية وبريقها المُبهر أغوته وأغشت عيونه التي أرهقها وأحجب رؤياها دخان الحروب وآلامها، فسارع مهرولاً الى سرايها، حالماً بوطن جديد يرى فيه بعضاً من الامان وشيناً من الكرامة التي أفقدها، ليترك معشوقته أرض النهرين الخالدين فريسة للمتخلفين والجهلة ليعيثنوا فيها فساداً بعد تركها أهلها ومحبوها..

مضى كل منا في طريق قدره بعد ذلك اللقاء، لتدور بنا دوامة السنين وبمن حولنا أبتلغتنا خلالها هموم الدنيا ومتاعبها، ثم لأقرأ كحال الغرباء خبر رحيله الأليم في 26/3/2011، أخذت دموعي تتساقط بغزارة دونما أرادة أو شعور مع كل كلمة أقرأها لذلك الرحيل.. فالدكتور فوزي رشيد لم يكن بالنسبة لي أنساناً وصديقاً رائعاً أو

أستاذاً فذاً ولا عالماً من الطراز الأول فحسب، بل كان يمثل حقبة زمنية كاملة وجيلاً متميزاً من المفكرين والباحثين يصعب أن لم يكن مستحيلاً على العراق في أوضاعه القاهرة الحالية أن يوجد بمثله... مع ذلك ربما كان أستاذاً محظوظاً حيث لم يودع الدنيا غريباً مشرداً رغم معاناته، خاصة في آخر أيام حياته، ليحصل من الوطن ولو على بقعة صغيرة من الأرض احتضنت جثمانه، ليثبت عراقية بلاد الرافدين الى جانب أجدادنا السومريين... ليبقى الم العربة وحرقتها يرافق من تظل عيونهم دوماً شاخصة نحو العراق وتربته الطاهرة، بالأخص أولئك المُبتلين بعشق تاريخها الخالد وآثارها العظيمة كحال كاتب هذه السطور. وبالرغم من مرور تلك السنين فلا تزال كلمات وعبارات أستاذاً الجميلة ونوادره اللطيفة خالدة في الذاكرة.. فالى اليوم كلما أرتكب حماقة من حماقات البشر حتى وأنا في هذه السن، أشعر كأن صدى صوته يأتيني من عالم الغيب مصحوباً بصورة ابتسامته الطفولية الجميلة صائحاً.. (حتى أنت يا بروتوس).